

سالي علي* ليس من الصعب على من يقرأ قصص غسان كنفاني أن يلمح صورة التدرج الواعي المتعاقد على واقعية صلبة محددة المخبر والمظهر، كأنما كان دائماً يحاول الاقتراب من حدود أهدافه التي يضعها لنفسه في أطوار مبكرة، كأن تكون القصة واقعية مئة بالمئة وفي نفس الوقت تمنح شعوراً هو غير الواقعية المتجسدة. تكاد لا تشذ كثيراً عن تلك القاعدة، إذ حاول غسان كنفاني فيها تطويع طريقة التداعي وانعدام الفواصل بين مونولوجات شخصياته لجعلها في أوضح المستويات الممكنة، قائمة على نظام محدود السمات مع أن تلك التقنية الفنية تتخذ - لدى غيره من الكتاب - منحى الحلم المبهم المتصف بالإيماء والغموض والتأرجح والتدخل، إلى غير ذلك من فقدان الانضباط لحركة النفس الداخلية. ورغم بلوغ غسان في التزام الواقعية إلى درجة يتعذر فيها الفصل أحياناً بين الواقع الحضاري والواقع الفني، فإننا لا نستطيع أن نعدّه وثائقاً في فنه لأنه لم يكن يكتفي بترتيب عناصر الواقع الحضاري على نحو تاريخي متصاعد أو متكامل بل كان يعيد ترتيب تلك العناصر ويمنحها التكييف والتوجيه ويستغل فيها الصور والمقارنات والمفارقات بحيث تجيء خلقاً جديداً هو الواقع وليس به، تدرج أيضاً في طريقة الإفادة من الوسائل الفنية التي كان يظنها كفيلة بتحقيق تلك الغاية فنجد مرةً يعتمد رسم المفارقات والمتناظرات ومرةً نجده يلجأ إلى إثارة البساطة الموحية في طبيعة الحوار ومرةً ثالثة يستغل عنصر "الامكان" الضروري ومرةً يجمع بين هذه الوسائل جميعاً غير أنه من البداية إلى النهاية ظلّ مصراً على أن خير ما يبلغه هدفه هو طبيعة الشخصيات التي لا مناص لها من العيش ضم غطار واقعيته المبتغاة فحين كتبت غسان "أم سعد" كان قد تنازل عن كل فذلّة فنية في سبيل أن لا يدع هناك أية مسافة بين الواقع الحضاري والواقع الفني. أعني بأننا نراها واقعية واضحة بسيطة كأنها دون تعمل لون من ألوان الحكاية من غير أن تتذرع للوصول إلينا بذرائع من فلسفة فكرية أو من إثارة عاطفية أو من تقنية مركبة أو غير ذلك من وسائل وعناصر. لكن لا ريب في أن جعل القصة واقعية بالقدر الذي أراده غسان يعني التضحية بأمور كثيرة قد كانت تحيط الفن القصصي بمزيد من القدرة على التأثير، وفي مقدمة تلك الأمور قيام القصة على الرمز. إن قيام القصة على مبنيين ظاهري وداخلي يمنح القصة عمقاً خاصاً ويجعلها مليئة بالإيحاءات قابلة للفروض والاحتمالات وبقوة الرمز وتجدد ضروب التفسير تحتفظ القصة بالديمومة وتتجدد فيها الطاقات رغم تغير الظروف وعندما أصبحت مواجهة الحقيقة هي الشيء المهم، ولكن هل يظل لها الشعور حياً في نفوس قرائها بمرور الزمن؟ وإنما حاول استغلال المزاوجة بين بناءين ظاهري وباطني، وجرب طريقة الاعتماد على الرمز في الإيحاء والتأثير. أي أن الأحداث والشخصيات ترتبط في زمن واحد. رغم التباعد المكاني، وبتلاعب من القاص في إبراز معنى الزمن بالنسبة لكل منها، وهذا هو الذي حدا به إلى أن يجعل حضور كل شخصية قائماً على التداعي وكأن أحاديثها النفسية وأفعالها متداخلة لارتباطها بعنصر الزمن. فكلتاهما تصور محاولة الفلسطيني للهرب من واقعه وسعيه نحو الاستقرار وتشبّثه بالحياة على نحو فردي. ولكن الإرادة المسلوقة في الأولى أخذت تتضح وتتطور نحو التشكل في الثانية أما في القصة الثانية فكل شيء يدق وينبض: مؤشر الزمن سواء كان الساعة في بيت مريم أو الساعة التي ألقى بها حامد في حوض الأرض والخطوات التي تدق على صدر الصحراء والجنين ينبض أيضاً، الشهوات تدق، حتى الصمت نفسه ظن غسان بأنه يدق له صوت. كل شيء يتهيأ للولادة وذلك لأن الموت المبكر الذي أصاب سالم الفدائي قد حرك شرارة الانبعاث في كل نفس. غير أن "ما تبقى لكم" تؤكد الحقيقة الكبرى التي أكدتها القصة السابقة لها وهي أن كل طريق بعيدة عن الوطن مرصدة بموت مجاني ومن ثم شهدت الأرض كيف أن "حامد" انحرف في طريقه عما يرده إلى الماضي، إلى أمه،